الباب الثالث

قيام دولة كوش

تؤكد الوثائق أن كوش كلها قد أصبحت تكون دولة موحدة مستقلة ، خلال المائة والخمسين سنة الواقعة بين سقوط الدولة الوسطى وقيام الحديثة (١٧٣٠ — ١٥٨٠ ق . م .) سميت باسم دولة كوش ، وكان على رأسها حاكم من أهلها عرف فى المحيط الدولى حينذاك باسم حاكم كوش ، يقف على قدم المساواة مع الدولتين اللتين اقتسمتا شمال الوادى : دولة المصريين ومقرها طيبة والتى سميت فيما بعد بالأسرة السابعة عشرة التى امتدت من أسوان جنوبا حتى « القوصية » فى مصر الوسطى شمالا ، ودولة الهكسوس وتسيطر على كل من الدلتا ومصر الوسطى .

اما بالنسبة لمصر ، فلقد انتهت حلقة أخرى من حلقات تطورها ، بعد أن سقطت الدولة الوسطى بدخول الهكسوس الآسيويين سنة ١٧٣٠ ق.م. ولعل استقلال كوش فى تلك الفترة يفسر سبب انتشار العناصر المميزة لحضارة كرمة فى منطقة حضارة المجموعة الثالثة فى آخر مراحلها ، مما يدل على سقوط الحواجز السياسية بين أصحاب المجموعة الثالثة فى منطقة النوبة السفلى ، وبين أصحاب حضارة كرمة من حول الشلال الثالث ، والتى امتدت الى مناطق أخرى شمالا وجنوبا ، وذلك بعد أن انضمت الحضارتان تحت لواء أصحاب حضارة كوش .

والوثائق القليلة التى ترجع الى تلك الفترة من تاريخ كوش وتتحدث عن قيام تلك الدولة فى شمال السودان كلها مصادر مصرية :

١ — أهمها لوح الملك كاموسى ثانى ، ملوك الأسرة السابعة عشرة

الطيبية الذين رفعوا راية الثورة على الهكسوس (١) . يضاف الى ذلك ما يبدو انه نسخة اخرى للوح الملك كاموسى ، مكتوبة على اللوح المدرسى المعروف باسم كارنارفون (٢) ، وفيه مايؤكد قيام دولة مستقلة فى كوش، حدودها الشمالية الفنتين عند اسوان . وعلى اللوح يسجل الملك كاموسى كيف جمع رجال بلاطه ليستشيرهم فى الموقف السياسى ، فيقبلون عليه ممجدين قوته قائلين « ان الفنتين (اسوان) قوية ... » ومعنى ذلك ان مملكة كوش امتدت شمالا لتصبح اسوان هى الحدود بينها وبين مصر ، ويرد عليهم الملك كاموسى بقوله « وما فائدة قوتى طالما هناك امير فى اواريس (وهى تانيس عاصمة الهكسوس فى شرق الدلتا) وآخر فى كوش وانا اجلس هنا بين آسيوى (يقصد ملك الهكسوس) وبين جنوبى (نحسى) (ويقصد ملك كوش) ، وكل واحد منهما يملك جزءا من مصر ويقتسمان البلاد معى » .

والهكسوس هو الاسم الذى اطلقه المصريون على الغزاة الآسيويين الذين تسببوا فى سقوط الدولة الوسطى . ثم استقروا فى مصر ما يقرب من قرن ونصف . ومعنى الاسم حكام البلاد الأجنبية .

٢ — ومن حسن الطالع أن يعثر مؤخرا على لوح آخر (٣) ، عليه نص ربما كان تكملة لذلك النص المدون على اللوح الذى سبق ذكره ، ويشتمل على معلومات تاريخية ذات قيمة عن الدور الذى يلعبه « حاكم كوش » فى ذلك الوقت ، وعن مركزه بين غيره من الحكام الذين تقاسموا الملك فى وادى النيل وفى هذا النص يذكر الملك كاموسى كيف انه استطاع أن يأسر مبعوث ملك الهكسوس ، وهو فى طريقه جنوبا يسعى الى حاكم كوش « على طريق

---

(١) أحمد بدوى ، فى موكب الشمس ٢/٣٥٤ ، ٣٥٥ ؛

Lacau, Ann. du Serv, 39, p. 254, pl. 37-38.

(٢) وهو لوح صغير من الخشب كان يستعمله تلاميذ المدارس فى مصر القديمة ، وقد استقر أخيرا ضمن مجموعة اللورد كارنارفون .

Gardiner. JEA 3, p. 95 ff. XII, XIII.

(٣) Saeve Soederbergh, Kush IV, 54-61.

الواحة » ، وهو نفس الطريق الذى سلكه الرحالة « خوف — حـور » من الدولة القديمة فى احدى رحلاته . أما الرسالة التى يحتمل انها كتبت بالمصرية ، والتى حملها الرسول ، فقد دونت بنصها على اللوح ، وتتمثل فيها صورة من أقدم صور الدبلوماسية التى كانت سائدة بين الممالك حينذاك ، فبعد المقدمة ، بما فيها من تحية ، نرى ملك الهكسوس يخاطب «حاكم كوش» بقوله : « لماذا لم تحطنى علما عندما أصبحت حاكما ؟ » ثم يدخل فى صـلب الموضوع طامعا فى كسب « حاكم كوش » الى جانبه فى صراعه المرتقب مع المصريين فى طيبة « حتى يمكن اقتسام مصر فيما بيننا » كما ورد فى الرسالة . ومن وجهة نظر المؤرخ فان خليفة حاكم كوش المقصود فى الرسالة ، قـد وقف على الحياد ، هذا اذا لم يكن قد انحاز الى جانب المصريين ، وذلك ظاهر من اشتراك قوات مساعدة من كوش الى جانب القوات المصريـة فى نهاية مرحلة صراعها لطرد الغزاة على وادى النيل ..

٢ — وفى المرتبة الثانية من الأهمية يأتى لوحان عثر عليهما فى بوهين :

(أ) الأول فى متحف الخرطوم يحمل رقم ١٨ ويخص الموظف « اياح وسر » حيث يذكر أنه كان فى خدمة الحاكم الكوشى فيقول : « كنت خـادما شجاعا لحاكم كوش ، ولقد غسلت قدمى فى مياه كوش (دليلا على الولاء) أثناء مرافقة الحاكم .. ثم عدت لأسرتى سالما معافى » ، وفى رأيى أن هذا التعبير (غسل الأقدام) هو الأصل فى التقليد الذى ظهر كثيرا أيام الحضارة المروية المتمثل فى ظهور رسوم القدمين ومن حولهما النصوص بالخط المروى . ولعلنا من هذا المنطلق يمكننا تفسير بعض ما ورد فى هذه الكتابات الخاصة برسم الأقدام على الصخور . وقد اتفق على أن اللوح يرجع الى أيام الحلقة الأخيرة من حلقـات الصراع ضد الهكسوس . وفى هذا النص يؤكد الموظف اياح وسر — الذى يعتقد أنه من أصل مصرى — اخلاصه لحاكم كوش الوطنى ، ولا شك كذلك أن عودة هذا الموظف من رحلته مع حاكم كوش كانت الى بوهين حيث اقام هذا اللوح .

(ب) أما اللوح الثانى الذى عثر عليه فى بوهين ، فصاحبه الذى يحمل اسم

« سبدحور » كان فى خدمة حاكم كوش المستقل (متحف فيلادلفيا رقم ١٠٩٨٤) (٤) ويرجع هذا اللوح الى نفس العصر السابق . ويتباهى سبدحور بأنه كان قائدا فى بوهين ، وانه قام ببناء معبد للاله حورس هناك ليدخل السرور به على « حاكم كوش » ، وقد يظن هنا ان المقصود « بحاكم كوش » هو « ملك مصر » أيام الدولة الحديثة . الا انه مادام المؤكد أن « حاكم كوش » فى اللوح الأول ، يقصد به فعلا الحاكم المحلى لدولة كوش ، وحيث أن اللوحين ينتميان الى المجموعة نفسها ، فليس هناك ما يمنع من اعتبار المقصود أيضا « حاكم كوش » المحلى . وكان حاكم كوش يستعين بعدد من المصريين ، للعمل فى دولته التى امتد سلطانها على كل منطقة سهل كرمة ، ثم شمالا حتى الفنتين عند حدود مصر الجنوبية أيام الدولة القديمة . والظاهر ايضا ان تلك الدولة المستقلة ازدهرت وعاشت اكثر من جيل ، وكان حكامها يتمتعون بمنزلة رفيعة فى وادى النيل ، وعلى الأخص اذا نظرنا الى مخلفات حضارة كرمة نظرة جديدة ، باعتبار أن جزءا كبيرا منها يرجع الى تلك المرحلة من تاريخ السودان القديم التى قامت فيها دولة كوش المستقلة .

وفى تلك الحالة يمكن اعتبار المقابر الضخمة فى كرمة ، هى مقابر حكام كوش ، أما المبانى المعروفة باسم دفوفة فهناك احتمال أن تكون مقرا لهؤلاء الحكام .

ومن المؤسف حقا أن آثار السودان فى تلك الفترة (١٧٣٠ — ١٥٨٠ ق . م .) لم تمدنا حتى الآن بمعلومات تاريخية تستحق الذكر : فلم نعثر لأصحاب تلك الحضارة ، بعد ، على آثار مكتوبة ، وانما جل اعتمادنا على المصادر المصرية القليلة التى تحدثنا باختصار عن تلك الحضارة ، ثم على نتائج علم الآثار والدراسات المقارنة لمخلفات أهل البلاد . وفى الواقع ان حملة انقاذ آثار بلاد النوبة تمدنا بمعلومات أوفى وأدق عن تفاصيل تلك

---

(٤) Mac-Iver and Woolley, Buhen 113.

المرحلة ، وخصوصا عندما تظهر التقارير الكاملة لأعمال الحفر التى اشتركت فيها البعثات من مختلف الدول .

ولما انتهى الأمر فى مصر بطرد الهكسوس ، تطلع ملوك مصر الى تأمين الحدود الجنوبية ، فاتجهوا الى اعادة ارتياد النوبة وتأمينها ، ويعتقد البعض (٥) أن ذلك قد بدأ فعلا منذ أيام كاموسى آخر ملوك الأسرة السابعة عشرة ، معتمدين على حقيقة تسجيل اسمه بجانب اسم خليفته أحموسى على احدى الصخور عند « ارمنا شرق » Erminna-East ، وتتضح الأمور التى حدثت فى النوبة فى زمن الملك أحموسى هذا اكثر فاكثر ، والظاهر انه وصل حتى بوهين ، وسيطر على المنطقة بين الشلالين الأول والثانى ، فقد ادت الحفائر التى أجريت تحت معبد الملك أمينوفيس الثانى فى بوهين ، بعد نقله الى الخرطوم لانقاذه من الغرق فى بحيرة السد العالى ، الى الكشف عن عتب لأحد الأبواب يحمل اسم الملك أحموسى ، من بقايا معبد ، كان الملك قد اقامه خارج أسوار القلعة التى شيدها ملوك الدولة الوسطى من قبل . ومن هنا يعتقد أنه ربما قام أيضا بتوسيع القلعة لكى تضم معبده الجديد . وفضلا عن ذلك عثر على جزئين لتمثال أحموسى فى جزيرة صاى ، وعلى نقش يحمل اسم الملك أحموسى واسم زوجته هناك (٦) .

اما السجل الوافى لأعمال احموسى الحربية فى جنوب الوادى ، فقد أمدنا به أحد رجاله المخلصين ، وهو أمير الأسطول المدعو « احموسى بن ابانا » ، وهو مسجل على جدران مقبرته بمدينة الكاب (٧) . فيذكر أنه أبحر جنوبا مع الملك الى مكان يدعى « خنت — حن — نوفر » ، ولا شك أنه اسم أطلق على مكان ما من بلاد النوبة ، وذكر أيضا أن ساكنى المنطقة هم « اليونوبجتيو » وهم « أصحاب الأقواس » وهو اسم عام ، ربما قصد

---

(٥) Arkell, History, p. 80, ff.

(٦) Vercoutter. New Egyptian texts from the Sudan, Kush IV, 66-82, Ibid Excavations in Sai 1955-7. Kush VI, 144-169.

(٧) وتقع الكاب بالقرب من ادفو ما بين أسوان والأقصر ؛ BAR II, 39.

به قبائل البجا أسلاف البشاريين الحاليين . ويستطرد صاحب السجل فيقول أن موقعة كبيرة دارت بينه وبينهم ، مما يدل على ضخامة القوات التى حاربها القائد أحموسى . ورغم انتصار أحموسى فى هذه المعركة فان الثورة قامت من جديد تحت زعامة أمير محلى يدعى «آآتى» كان يمتلك اسطولا نهريا ؛ حينئذ خرج اليه الملك أحموسى وتلاقيا عند « تنت — تا » Tint-ta وهو مكان بالقرب من النيل ؛ ولا نكاد نعرف موقعه على وجه التحديد ؛ وهناك وقع الأمير أسيرا ومعه كل أفراد عشيرته . ولم يستقر الأمر لأحموسى بعد القضاء على تلك الثورة كما كان يتمنى ، وانما تبع ذلك قيام أمير محلى آخر بالثورة ، وكان ذلك الأمير يحمل اسما مصريا هو « تتى — عن » (تتى الجميل) ، ولا شك أن حمل الأسماء المصرية من هذا القبيل انما يرجع الى تمصر الخاصة من اهالى كوش نتيجة للعلاقات المستمرة مع أهل الشمال فى مصر ، وبعد أن جمع « تتى — عن » من حوله نفرا من الأتباع الثائرين تصدى له أحموسى « وقتله ثم فرق شمل جماعته » .

وانتهت أيام الملك أحموسى الأول ، الا أن سجل أمير الأسطول « أحموسى بن أبانا » يستمر فى ذكر حوليات الملك أمينوفيس الأول فى الجنوب فيقول : « ان جلالته أبحر جنوبا الى كوش ليوسع حدود مصر » (٨) .ومعنى ذلك أن كل ما فعله الملك سنوسرت الثالث أيام الدول الوسطى فى بلاد النوبة قد ضاع . « وضرب جلالته قائد الجيش الكوشى » ، وفى هذه الاشارة ما يؤكد الاعتراف بوجود جيش لدولة كوش على رأسه قائد محلى ، ويستطرد النص فيقول : « وبعد أن ساق كل قومه اسرى مع قطعانهم عاد الملك مبحرا الى مصر ، فى رحلة استغرقت يومين » ، ولعل تلك الحملة هى نفسها التى أمر الملك أمينوفيس الأول بتسجيلها على الصخور عند « أورون — أرتى » (جزيرة المنك) ، والتى وقعت فى العام الثامن من حكمه . وفى أقوال أحد أمراء اقليم الكاب المدعى « حورمين » (٩) من

---

(٨) BAR II, 39 ff; Sethe Urk. IV, p. 75.

(٩) Sethe, Urk. IIV p. 77.

ذلك العهد ما يشير الى أن اقليم الكاب قد اتخذ المركز القديم الذى كان لأسوان من قبل ، ذلك أن حاكم الاقليم الثالث من اقاليم الصعيد هذا (الكاب) قد أصبح مشرفا على اقاليم الجنوب فيما وراء الشلال الأول (١٠) وقد عثر فى جزيرة صاى على لوحة هامة داخل القلعة ، وعليها الألقاب الملكية للملك أمينوفيس الأول كاملة (١١) ، كما عثرنا هناك أيضا على لوحين صغيرين عليهما اسم الملك وكذلك تمثال لنفس الملك أيضا مما يؤكد ، بما لا يدع مجالا للشك ، أن أمينوفيس الأول قد بلغ فى تقدمه جنوبا حتى صـــاى وأنه بنى وعمر هناك .

وكانت مهمة الملك تحوتمس الأول (١٥٣٠ــ ١٥٢٠ ق . م .) هى اتمام العمل ، والتقدم الى ما وراء الشلال الرابع عند « كرقس » Kurgus ــ ما بين الشلالين الرابع والخامس ــ ويحدثنا أمير الأسطول « أحموسى بن ابانا » السالف الذكر ، أن تحوتمس الأول قد واجه ثورات فى بلاد النوبة ، فركب النيل مصعدا الى « خنت ــ حن ــ نوفر » ، وهـــو نفس المكان الذى ذهب إليه أحموسى الأول من قبل ، ليقوم « بالقضاء على الثورة فى تلك البلاد ، وليضع حدا لجراة أهلها » على حد تعبير النص (١٢) وقد استطاع الأسطول ، بشق الأنفس ، الخروج من منطقة الشلالات الى سهل كرمة ، حيث الموطن الأصلى للأمير المحلى ، وهناك قامت معركة كبيرة سقط فيها قائد الجيش الكوشى صريعا ، وسيقت جماعته أسرى . وعن هذه المعركة يحدثنا أيضا أحد رجال الملك ويدعى « أحموسى الكابى » على جدران قبره بموطنه الأصلى بمدينة الكاب ، ويؤكد ذلك اثر للملك أحموسى الأول عند « تنقور » Tangur فى منطقة بطن الحجر (١٣) ، وكان المعتقد حتى وقت قريب أن الملك تحوتمس الأول لـــم يتقدم جنوبا الى أبعد من « طمبس »

---

(١٠) أحمد بدوى ، فى موكب الشمس ٢/٣٨٧ ، ٣٨٨ .
(١١) Vercoutter Kush IV, p. 75.
(١٢) Sethe, Urk. IV, 8, 36.
(١٣) Sethe, Urk. IV. S. 82. ff.

Tumbus حيث ترك لوح الحدود المشهور خلف منطقة الشلال الثالث (١٤) - هنالك يذكر الملك أن أملاكه امتدت من « قرن الأرض » فى الجنوب (وربما يقصد جبل البركل) حتى أطراف المياه المعكوسة (ولعله يقصد نهر الفرات) . وقد تردد ذكر تلك الحدود الجنوبية ما بين مصر وبلاد كوش فى النصوص التى تركها رجل الدولة المصرى « اننى » Ineni فى قباعة الكرنك (١٥) ، والذى عاش منذ زمن أمينوفيس الأول حتى أيام الملك تحوتمس الثالث ، كما عثر على نص لتحوتمس الثانى على الصخور ما بين أسوان وفيلاى يحكى احداث حملة حربية أرسلت الى كوش ، عندما وصلت أخبار ثورة قامت فيها ، واستطاعت الحملة أن تقضى على الثورة ، وأخذت أحد أبناء حاكم كوش أسيرا ، وكرهينه الى فرعون فى طيبة (١٦) . وفى الحقيقة ، لا نستطيع تحديد المكان المقصود بكلمة « قرن الأرض » التى تكرر ذكرها فى تلك النصوص باعتبارها تمثل أقصى نقطة جنوبية للتقدم المصرى فى السودان الشمالى أيام الدولة الحديثة .

ولقد كشفت الأبحاث ، حديثا ، عن نقش آخر للحدود عند « كرقس » Kurgus الى الجنوب من أبى حمد — عند نهاية الطريق الصحراوى الذى يبدأ عند كرسكو أو كوبان فى النوبة السفلى ، ويختصر المسافة بتجنب المرور فى منطقة الشلالات الثانى والثالث والرابع ، وهناك على احدى الصخور صور الملك تحوتمس الأول على هيئة الأسد أمام المعبود آمون رع . ولا يستبعد أن تكون القلعة القديمة الموجودة بالقرب من النقش السابق ذكره عند « كرقس » Kurgus قد شيدت فى زمن الملك تحوتمس الأول .

وفى « حجر المروة » Hagar-el-Merwa شمالى مدينة بربر عثر على

---

(١٤) Sethe. Urk, IV, S. 82.

(١٥) BAR II, 101.

(١٦) Emery, Egypt in Nubia p. 180-182; BAR II, 119-22; Sethe, Urk, IV. p. 139.

اسم الملكة زوجة تحوتمس الأول وكانت تدعى احموسى (١٧) ومدونا على احدى الصخور ضمن نقوش اخرى يحمل بعضها اسم الملك تحوتمس الأول .

(١٧) أحد بدوى . فى موكب الشمس ٢/٣٩٢ ، رقم ٢ ، ص ٤٠١ حيث يذكر انها كانت أهم زوجات الملك تحوتمس الأول وهى التى انجبت له ابنته حتشبسوت الملكة المعروفة ، والتى طالبت بعقها فى العرش بعد وفاته .